المدن التاريخية الأثرية ودورها الثقافي والسياحي في الجزائر
حالة واحة تيتيمون، مازونة، بجاية

عمار سما علي
أستاذ جغرافيا وتهيئة عمرانية
جامعة ٢٠ أوت ١٩٥٥
سكيكدة – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

تمثل هذه المدن التاريخية الفريدة من نوعها والتي أدرجت ضمن المعالم التاريخية لمنظمة اليونسكو منذ ١٩٨٢ حيث من الواجب تدعيم وحماية هوية هذه المدن باستمرار ضد العولمة والتيارات الخارجية وإعادة الاعتبار وحماية التراث الذي يعتبر مثالاً حيًا على المستوى المتوسطي. وعلى الفاعلين الجزائريين إيجاد الحلول الملاءمة للحفاظ على مراكزها التاريخية، وضمان تحسين الإطار المعيشي للسكان، ومسايرة متطلبات العصر، وهذا مع التشبث القوي بالهوية الثقافية مواجهةً لأخطار العولمة التي تفرضها علينا.

كلمات مفتاحية:
واحة تيميمون، فقارة تيميمون، مدينة مازونة، بجاية

معرِّف الوثيقة الرقمي:
DOI 10.12816/0051267

أولاً: واحة تيميمون

تقع مدينة تيميمون[1] في الجنوب الجزائري وبالتحديد في منطقة قورارة بولاية أدرار وتلقب بعروس الصحراء كما تتميز بطابع عمراني معماري فريد من نوعه الأمر الذي دفع الباحثين الفرنسيين وقت الاستعمار إلى تصنيفها على أساس أنها الواحات الرائعة في شمال إفريقيا. يسمى سكان المنطقة بالتوارق أو الرجال الزرق، كما يقال إن اسمهم مستمد من اسم القائد المسلم طارق بن زياد، ويعود سبب تسميتهم بالرجال الزرق لأنهم يلبسون القماش الأزرق ويلثمون وجههم لتفادي غبار الصحراء. تنفرد الواحة الحمراء في مدينة تيميمون بطابع فلكلوري هو "أهل الليل" طابع ذو إيقاع موسيقي جميل يتضمن المديح الديني والشعر، كما تعرف المنطقة كذلك بالعديد من الصناعات التقليدية كالسلال والفضة والحدادة وتشتهر بصناعة النسيج وخاصةً زربية فاتيس التي تعدت شهرتها الحدود الجزائرية.

منظر عام لمدينة تيميمون

(١) سميت المدينة بهذا الاسم نسبة للسلطان ميمون وإضافة تي بلغة أهل المنطقة تعني تنسب إليه. تتكون منطقة تيميمون من مجموعة قصور هي: تلالت - بادريان -الكاف- الغزال- زقور - طارواية- أغيات- اعلاملال -ماسين ب-ويحيا- زاوية الحاج بلقاسم- بني مهلال -بني ملوك -اغنت- ليشتى- اولاد طاهر- تمانة تاورسيت -الواجدة.

١/١-عادات وتقاليد سكان تيميمون

تظاهرة السبوع

تعرف واحة تيميون المدينة الهادئة بتظاهرة السبوع التي تقام مرة كل سنة مع حلول درى المولد النبوي الشريف، حيث تصبح المدينة منبر للتهليل والمدائح الدينية تنشطها مختلف الفرق الفلكلورية. كما يمثل السبوع بالنسبة لسكان هده المدينة والمناطق المجاورة لها تظاهرة ثقافية واقتصادية تجدرت في التقاليد المحلية مر السنين. ومن الحكايات التي تروى في تيميون عن السبوع أن المرابطين عندما نزلوا بالمنطقة أشاعوا الصلح والأخوة بين القبائل المتناحرة أنداك وكاعتراف من هذه القبائل بفضل المرابطين عليهم في إشاعة الصلح والسلم في المنطقة يقوم أبناء توات "سكان تيميمون" بزيارة قبور هؤلاء الصالحين.

من طقوس هذه التظاهرة التي تقام في هذه المناسبة لقاء الألوية الذي يتم في مكان يسمى بـ الحفرة وفي هذا اللقاء تقام المبارزة بين فرق الألوية[٢] والرايات الذي يتوج دائما بفوز مجموعة وانهزام أخرى تحت الأهازيج والزغاريد. وبعد الانتهاء من المبارزة يستلقي الجميع على الرمال لمدة دقائق وقبل غروب الشمس والانصراف، يتجه الجميع إلى ساقية سيدي الحاج بلقاسم لشرب كمية من الماء تبركًا بهذا الوالي الصالح، الذي خدم الإسلام والمسلمين بهذه المنطقة.

تظاهرة السبوع

(٢) الألوية: عبارة عن مجموعة رايات كل واحدة منها ترمز إلى أحد الأولياء الصالحين الذين حضروا أول لقاء دعاهم إليه الشيخ سيدي الحاج بلقاسم في منطقة حفرة العلم، حيث اقترح عليهم فكرة الاحتفال باليوم السابع من المولد النبي الشريف بالطريقة التي تقام حاليًا.

فقارة تيميمون

يعتمد مبدأ الفقارة أساس على الحفر في منطقة يوجد بها ماء تكون عالية المستوى، يمكن نقل هذه المياه إلى مناطق أخرى أقل انخفاضًا عبر قنوات تحت الأرض تستخدم للري. يقول الدكتور بهاء الدين الجزائري، ذو الأصول السورية، الذي اهتم بتاريخ مدينة تيميمون "أصل الفقارة يعود إلى سيدي عثمان الذي جاء إلى تيميميون كداعية لتعليم القرآن، إذ تعلم أنظمة الري عبر تجواله في العديد من مناطق الشام ونقلها إلى تيميمون قبل أكثر من ثمانية قرون، أين كان المزارعون يعتمدون على الري والأبرا وسحب الماء يدويًا بالدلاء فاستبدل نظام الري القائم بنظام الري بالفقارة.

الفقارة نموذج فريد من نوعه في توزيع المياه بالتساوي

ثانيًا: مازونة عبق التاريخ

يمتد تاريخ مازونة إلى جدور الحضارات القديمة فكانت منارة للعلم ومنهلا للحضارة برأي المؤرخين والدارسين، فأراضيها الخصبة والغنية وأنهارها أثارت إعجاب الكثير من الرحالة الجغرافيين الذين مروا بالمنطقة حيث ذكرها الإدريسي في قوله: "هي على بعد أميال من البحر شرقي حوض فروخ، بين جبال ذات انهار ومزارع وبساتين وأسواق عامرة ومساكن مؤنقة من أحسن البلاد بقعة وأكثرها فواكه وأبانا وسمنا وعسلا".

١/٢- أصل تسمية المدينة:

يوجد اختلاف في تحديد أصل تسمية المدينة، حيث ورد في كتاب دليل الحيران لمحمد بن يوسف الزياني أن مازونة هوإسم لرئيس قبيلة زناتية تدعى ماسون المعروف باسم رجيس ماسينغ جانسين كما يذكر الدكتور مولاي بالحميسي فضلاً عن مذكرات السيد الوكيل يوسف المازوني أن مازونة استنبط اسمها من إسم ملكة كانت تمتلك كنزا من النقود يسمى موزونة وحكي أن ملكًا حط رحاله أثناء مروره بمازونة بأحد جبالها وكانت ترافقه ابنته إسمها زونة فطلب من رجاله أن يحضروا لها ماءً فلما وجدوا المنبع احتكروه لأنفسهم وقالوا "ماء زونة".

٢/٢- تاريخ تأسيس المدينة:

حسب المؤرخين فغن تاريخ تأسيس مدينة مازونة يرجع إلى العهد الروماني مستندين في ذلك على وجود أثار وقطع من النقود الرومانية التي وجدت بالمنطقة وفي هذا الصدد يذكر الرحالة الإسباني "مرمول" عندما قام بجولته عبر المغرب العربي خلال القرن السادس عشر في كتاباته أن ملزونة مدينة قديمة أسسها الرومان مبرهنا على صحة قوله بوجود أثار ولوحات رومانية منقوشة. أما الإدريسي، فقد حدد بعض التفاصيل حول المدينة، وذكر أنها كانت موجودة منذ القدم قبل الإسلام بحوالي بضعة قرون، غير أن العلامة ابن خلدون يذكر بان مازونة أسست على يد عبد الرحمان زعيم مغراوة في القرن الثاني عشر ميلادي وهوما يقاسمه فيه الرأي صاحب كتاب "دليل الحيران" لمحمد لن يوسف الزياني. تقول بعض الدراسات التاريخية أنه عقب الفتوحات الإسلامية لمنطقة المغرب العربي سارع سكان مدينة مازونة لاعتناق الإسلام لتشتهر مدينة مازونة بمدرستها الدينية المختصة في الدراسات الفقهية والتي ذاعت شهرتها في ذلك الوقت بكثرة مجالسها العلمية، ونجابة طلبتها، وقريحة مشايخها، ومن أشهرهم الشيخ محمد أبوطالب بن عبد الرحمان، المعروف بـ "ابن الشارف المازوني "الذي شارك مع طلبته في تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني.

٣/٢- أثار مدينة مازونة:

توجد في مدينة مازونة القديمة أثار قائمة وشاهدة إلى يومنا هذا على عراقتها ومنها محكمة قديمة وعدة مساجد عتيقة يعود تاريخها إلى العهد العثماني، ومدرسة قرآنية يعود تاريخها على القرن الحادي عشر الهجري، أسست من طرف الشيخ سيدي بن شارف وبها أضرحة لمجموعة من العلماء الذين عاشوا ودرسوا في تلك الحقبة كما بني بها مسبح كبير يدعى "تامدة". استخدم كمكان للراحة والاسترخاء ويصب في منبع طبيعي ويقع تحت صخور ضخمة، وتحيط به أشجار ومساحات خضراء ذات مناظر خلابة

المساجد: توفرت مازونة سنة ١٨٣٣ م على مسجدين ومقهى وقد ذكرا هذين المسجدين في مذكرة TATAREAU ومن جملة المساجد التي تأسست منذ القدم فهي على التوالي.

- مسجد سيدي محمد الغريب (تايسارت) بني عام ١٠٠٠م
- سجد سيدي عزوز بني عام 1100.
- مسجد الهدى بوذلول بني عام ١٤٥٠م.
- مسجد سيدي علي بن لحسن بوماتع بني عام ١٤٠٠م.
- مسجد سيدي عبد الحق القصبة بني عام ١٦٠٠م.
- مسجد سيدي محمد بن شارف بني عام ١٧٠٠م.
- مسجد مولاي بسويقا (بوعلوفة).
- مسجد المدرسة أسسه امحمد بن الشارف عام ١٠٢٩م.

الزوايا ومراكز حفظ القرآن: إن الزاوية قلعة من قلاع بث العلوم، ونوعية العقول، وتربية النفوس، والأخذ بيد الأمة نحو السعادتين، ودعوتها إلى كل كمال، ولذا كانت الزوايا منتشرة في مازونة وما حولها من بينها: زاوية سيدي بللوش في أولاد سلامة: شهدت هذه الزاوية بتخريج الكثير من الطلبة حفظة القرآن، وزاوية سيدي غلام الله: ولقد شهد لهذه الزاوية أيضا بتخريج عدد من الطلبة.

ثالثًا: بجاية تاريخ وحضارة

تعتبر بجاية كباقي مدن المتوسط مستعمرة رومانية حيث حكمها الرومان بعد تغلبهم على قرطاج، ثم اتخذها الوندال عاصمة لهم في القرن الخامس تعاقب على حكمها البربر، الحماديون وأسسها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري في الشمال الإفريقي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري لذا تسمى الناصرية نسبة إليه، بعدها حتلها الإسبان ثم الفرنسيون إلى غاية الاستقلال. من أبرز معالمها التي بقيت صامدة في وجه الزمن نذكر سكوار "بورغيدون" وساحة أول نوفمبر التي تعد بمثابة مركز بجاية القديمة التي لا تزال شاهدة على حضارة الحماديين حيث يلتقي فيها الأعيان والزوار الذين يتوافدون عليها من كل حدب وصوب كما نجد "القصبة القديمة" التي لا تزال تحتفظ بماضي المدينة وتاريخها الذي نحته ابن خلدون وتحولت إلى مكتبة يأتيها أزيد من ٧٠٠٠ طالب وباحث يطالعون في نفس القاعة التي كان ابن خلدون يقدم فيها دروسه منذ قرون، والتي بناها الموحدون في القرن الثاني عشر.

المرور ببجاية أيضًا يقتضي ألا يغادرها الزائر دون المرور بقرية "إغيل علي" موطن الكاتبة الكبيرة الطاووس عمروش التي جمعت بين حضارة الشرق والغرب هذه القرية التي تطل على منطقة الصومام وإفري وازلاقن، التي شهدت انعقاد مؤتمر الصومام التاريخي أثناء الثورة التحريرية.

مغارة أوقاس، يستحيل على أي زائر أن يدخل مدينة أوقاس المتواجدة على بعد ٣٠ كلم من مدينة بجاية في اتجاه الساحل الشرقي أن يغادرها دون أن يعرج على النفق الكبير الدي يفتح أبوابه نحو الدهاليز المتشابكة والتي تسمى بالمغارة العجيبة بأقواس، حيث صنفت من عجائب الدنيا المصنفة مؤخرًا في إسبانيا. في هذه المدينة تتيح الفرصة لكل إنسان أن يقوم برحلة إلى أعماق الأرض ليكتشف ما تخفيه من أسرار وعجائب صنعتها يد الطبيعة، ونقصد بذلك التماثيل الغربية للصواعد والنوازل التي تتواجد على عمق ١٢٠ متر من سطح الأرض، لتصل بزائرها إلى نهر يدعى بنهر الأماني إلى غاية الوصول إلى ممر ضيق جدًا يضطر كل زائر إلى الاصطفاف الواحد أمام الأخر قبل أن يحطوا الرحال في استوديو صغير تنبعث منه قطع موسيقية كلاسيكية رائعة بمجرد الضرب على إحدى تلك الصواعد بقطعة حجرية صغيرة.

مغارة مدينة ازلاغن

الحضيرة الوطنية ليما قورايا

"يما قورايا" الحصن الأسطوري لأجمل موقع سياحي في المنطقة اختلفت بشأنه التفاسير والروايات التاريخية بين مَنْ يقول إن مدينة بجاية لها (٩٩) وليًا صالحًا أخرهم امرأة تدعى "**قورايا**" حكمت المنطقة، ومَنْ يقول إن قورايا امرأة جاءت مع الاستعمار الإسباني ودخلت الإسلام، ودافعت عن المدينة لتستقر بها وتصبح قديسة. ولكن لا شيء من هذه الروايات مؤكد حتى الآن، ويبقى حصن قورايا أجمل موقع سياحي يزوره السياح من ربوع الوطن وخارجه سنويًا تبركًا بسر المرأة الأسطورة التي تبدو من بعيد في شكل صخرة جبلية على هيئة امرأة نائمة رأسها باتجاه القبلة، وقد أقرت الدراسات الأخيرة لمهندسين معمارين أن الحصن الذي شيده الفرنسيون يحتوي في داخله على ضريح قورايا بعد اكتشافهم لقبة بداخلها.

المراجع

- الإدريسي، **وصف أفريقيا الشمالية في اختراق الآفاق**، صفحة ونشره هنري بيرس، الجزائر، ١٩٥٨.
- مولاي بلحميسي، **دور مازونة في الحركة العلمية والثقافية من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن الحالي**، ١٩٧٦
- محمد بن يوسف الزياني، **دليل الحيران وانيس السهران في أخبار مدينة وهران**، الجزائر، ١٩٧٨.
- HARMOLE CARVJOL. discrétion générale d'dafrica 1973. tard France Perrot d'blencour paris 1867. 03vol
- **ANAT** Agence National D'aménagement du Territoire (2011) monographie willaya de ADRAR
- **ANAT** Agence National D'aménagement du Territoire (2011) monographie willaya de BEJAIA